معالم في التربية والدعوة



قام بجمعها
صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

ما زلتُ في هذه السلسلة مع «الأعلام» من علماء هذه الأمة، الذين كان لهم الأثر الكبير في توجيهها نحو الخير بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، الداعين إلى الله تعالى عن علم وبصيرة.

إنهم أعلام الإصلاح ومصابيح الهداية.

وعَلَمنا في هذا العدد، واحد من أبطال هذا الميدان، وأصحاب السبق فيه الذين لم يقتصروا على إسداء نصحهم إلى العامة، بل تجاوزوا ذلك ليصلوا بكلمة الحق والتوجيه إلى الحكام والقادة.

وهو واحد من أعلام الجهاد، في ساحتيه: ساحة

الفكر والمعرفة، وساحة القتال في جهاد أعداء الإسلام.

إنه الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي حفلت حياته بالعمل الدائب الذي لا يعرف الكلل، في سبيل إعلاء كلمة الحق والدعوة إليها. ومحاربة البدعة والباطل والجهل.

وقد كانت حياته حافلة في بيان جهل الجاهلين وأنصاف المتعلمين، الأمر الذي جعلهم يحقدون عليه.. فكابد منهم ما كابد... حتى تسببوا في إدخاله السجن مرات...

والذي يبدو أن السجن في حياة هذا المصلح الكبير لم يكن إلا فترة راحة واستجمام يخلو فيها مع ذاته، ويتفرغ للعبادة... فإذا خرج، خرج بنشاط متجدد، وهمة عالية..

بل إنه يذكر في إحدى رسائله التي بعث بها من السجن إلى بعض محبيه: أنه في حالة من الذوق والصفاء لم يصل إليها خارج السجن.. ويحسن بنا أن نذكر مقدمة هذه الرسالة:

قال في رسالته إلى أصحابه وهو في حبس الاسكندرية.

«بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ

فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ [الضحى] والذي أعرف به الجماعة أحسن الله إليهم في الدنيا وفي الآخرة، وأتم عليهم نعمته الظاهرة والباطنة، فإني - والله العظيم الذي لا إله إلا هو - في نعم من الله ما رأيت مثلها في عمري كله، وقد فتح الله سبحانه وتعالى من أبواب فضله ونعمته وخزائن جوده ورحمته ما لم يكن بالبال، ولا يدور في الخيال ما يصل الطرف إليها، يسَّرها الله تعالى حتى صارت مقاعد، وهذا يعرف بعضها بالذوق من له نصيب من معرفة الله وتوحيده وحقائق الإيمان، وما هو مطلوب الأولين والآخرين من العلم والإيمان. فإن اللذة والفرحة والسرور وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى، وتوحيده والإيمان به، وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية، كما قال بعض الشيوخ: لقد كنت في حال أقول فيها: إن كان أهل الجنة في هذه الحال، إنهم لفي عيش طيب»[1].

وقد وجه هذا المصلح الكبير همه إلى تصحيح لعقائد. وإلى الرجوع إلى منهج السلف الصالح.

---

(١) الفتاوى ٢٨/ ٣٠ - ٣١.

والمواعظ التي أضعها بين الأيدي، هي مقتطفات من أقواله الطويلة في مناقشته للمسائل أو معالجته للموضوعات التي يُسأل عنها، ولم يوردها مورد الموعظة كما هو شأن كثير من علماء هذه الأمة. وهي نماذج مما أورده في الفتاوى، انتقيتها أثناء رجوعي إلى هذا الكتاب القيم، راجياً من الله تعالى أن ينفعني بها وينفع كل قارئ لها.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٢ شعبان ١٤٢٢هـ

٧/ ١١ / ٢٠٠١م

كتبه

صالح أحمد الشامي

ترجمة الإمام ابن تيمية

هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله ابن تيمية الحراني الحنبلي.

ولد بحران سنة إحدى وستين وستمائة، وقدم مع والده وأهله إلى دمشق، وكانوا قد خرجوا من بلاد حران مهاجرين بسبب جور التتار وقدموا دمشق سنة سبع وستين.

طلبه للعلم:

فسمع الحديث من أئمته في دمشق، وسمع «مسند» أحمد مرات، و«معجم» الطبراني الكبير، والكتب الكبار والأجزاء.

وعني بالحديث، وقرأ بنفسه الكثير، ولازم السماع[1] مدة سنين، ونسخ وانتقى، وتعلم الخط

---

(١) أي السماعات، وهي مجالس علم الحديث الشريف.

والحساب في المكتب، واشتغل بالعلوم، وحفظ القرآن، وأقبل على الفقه، وقرأ أياماً في العربية على ابن عبد القوي[1] ثم فهمها، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهمه، وبرع في النحو وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً حتى حاز فيه قصب السبق، وأحكم أصول الفقه، كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنة، فعجب الفضلاء من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه وقوة حافظته، وسرعة إدراكه.

ذلك ما قاله من ترجموا له في نشأته.

أما أخلاقه فقالوا:

إنه نشأ في تصون تام، وعفاف وتأله، واقتصاد في الملبس والمأكل، ولم يزل على ذلك خُلقاً صالحاً، براً بوالديه تقياً ورعاً عابداً ناسكاً صوّاماً قوّاماً، ذاكراً الله تعالى في كل أمر، وعلى كل حال، رجّاعاً إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقافاً عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، «فارغاً من شهوات المأكل والملبس والجماع:

(١) هو العلامة شمس الدين محمد بن عبد القوي ابن بدران المرادي الحنبلي (٦٣٠ ـ ٦٩٩).

لا لذة له في غير نشر العلم وتدريسه، عرض عليه منصب قضاء القضاة ومشيخة الشيوخ فلم يقبل».

وقبل وظائف والده في التدريس وله إحدى وعشرون سنة.

وكان والده من كبار الحنابلة وأئمتهم، ودرّس هو بعده، فاشتهر أمره وبعد صيته في العالم، وما أتى له ثلاثون سنة، حتى كان من أعظم علماء عصره، بل أعظم عالم في عصره، لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تَمَلُّ من الاشتغال، ولا تكِلُّ من البحث، وقل أن يدخل في باب من أبواب العلوم إلا وفتح له من ذلك الباب أبواب، واستدرك أشياء في ذلك العلم على حُذّاق أهله.

وكان يحضر المجالس والمحافل في صغره، فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يحار منه أعيان البلد. وشرع في الجمع والتأليف وله نحو سبع عشر سنة.

وانتهت إليه الإمامة في العلم، والعمل، والزهد، والورع، والشجاعة، والكرم، والتواضع، والحلم، والأناة، والجلالة، والمهابة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مع الصدق، والأمانة، والعفة، والصيانة، وحسن القصد، والإخلاص، والابتهال

إلى الله تعالى، وشدة الخوف منه، ودوام المراقبة له، والتمسك بالأمر، والدعاء إلى الله تعالى، وحسن الأخلاق، ونفع الخلْق والإحسان إليهم.

وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجىً في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين، طنت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار.

جهاد الإمام ومحنته:

بدأت محنة شيخ الإسلام لما تمت أدواته وشاعت فتاويه في مسائل وجد منها حساده مدخلاً لهم، فناقشوه وكفروه وبدعوه، واعتقله الولاة وغربوه.

وكان منذ سنة تسع وتسعين و(ستمائة) ظهرت شخصيته السياسية في البلاد، وبدأ تعويل الأمة عليه في دفع أعدائها عنها في نوبة غازان[1]، فقام بأعباء الأمر بنفسه، واجتمع بنائبه وجرؤ على المغول[2] وتوجه بعد

(١) غازان: قائد جيش التتار الذي حاصر دمشق في المرة الأولى سنة ٦٩٩.

(٢) المغول والتتار أمتان من الجنس الأصفر اكتسحوا العالم الإسلامي فخربوا المدن، وأزالوا معالم الحضارة، ثم:

ذلك بعام إلى الديار المصرية لما اشتد الأمر بالشام من المغول، واستصرخ بأركان الدولة وحضهم على الجهاد، ثم عاد بعد أيام إلى دمشق، وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الأمراء على ذلك إلى ورود الخبر بانصرافهم، وقيامه القيام المحمود في وقعة (شقحب)[1] سنة اثنتين وسبعمائة واجتماعه بالخليفة والسلطان، وأرباب الحل والعقد، وتحريضهم على الجهاد.

ثم توجهه في آخر سنة أربع وسبعمائة لقتال الكسروانيين[2] واستئصال شأفتهم.

ثم مناظراته للمخالفين في سنة خمس في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم، وظهوره

= هداهم الله ـ بعد ذلك ـ للإسلام فكان منهم حماة له.

(١) شقحب: عين ماء جنوب دمشق بعد الكسوة على يمين الذاهب إلى حوران، جرت فيها معركة عظيمة بين التتار والمسلمين أبلى شيخ الإسلام فيها البلاء الحسن، وكانت في أول رمضان.

(٢) الكسروانيون: هم سكان جبل كسروان. وقد جرت المعركة معهم في مستهل ذي الحجة سنة أربع وسبعمائة. والمعارك والثورات كانت قبل وبعد ذلك منهم.

عليهم بالحجة والبيان، ورجوعهم إلى قوله طائعين ومكرهين.

ثم توجهه بعد ذلك في السنة المذكورة إلى الديار المصرية، في صحبة قاضي القضاة الشافعية[١]، وعقدهم له مجلساً حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة، ثم حبسه في الجب بقلعة الجبل، ومعه أخواه[٢] سنة ونصفاً، ثم إخراجه بعد ذلك، وعقدهم له مجلساً ظهر فيه على خصومه، ثم عقدهم له مجلساً سنة سبع لكلامه في طريقة الاتحادية[٣] ثم الأمر بتسفيره إلى الشام على البريد، ثم الأمر برده من مرحلة، وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفاً، ثم إخراجه منه وتوجيهه إلى الاسكندرية، وجعله في برج، حبس فيه ثمانية أشهر.

---

(١) هو القاضي نجم الدين ابن صَصْري، كما في «العقود الدرية» صفحة ٢٤٨.

(٢) هما شرف الدين عبد الله، وزين الدين عبد الرحمن.

(٣) أصحاب وحدة الوجود، وهم أنواع، ويوجد منهم في الديانات الثلاث، كما يوجد منهم في ديانات الهند. وهذه العقيدة أشد من كل كفر، فليس عندهم رب وعبيد، ولا خالق ولا مخلوق وإنما كل الكون يشكل وحدة كل جزء منها عبد من وجه، ورب من وجه آخر.

ثم توجهه إلى مصر واجتماعه بالسلطان[1] في مجلس ضم القضاة وأعيان الأمراء، وإكرامه له إكراماً عظيماً ومشاورته له في قتل بعض أعدائه، وامتناع الشيخ عن ذلك.

ثم سكناه القاهرة، ثم توجهه إلى الشام، ثم ملازمته بدمشق لنشر العلوم وتصنيف الكتب وإفتاء الخلق.

إلى أن تكلم بمسألة الحلف بالطلاق، فأشار عليه بعض القضاة بترك الإفتاء بها في سنة ثماني عشرة (وسبعمائة)، فقبل إشارته دفعاً للفتنة، ثم ورد كتاب السلطان بعد أيام بالمنع من الفتوى بها، ثم عاد الشيخ إلى الإفتاء بها وقال:

لا يسعني كتمان العلم، وبقي كذلك مدة إلى أن حبسوه بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، ولم يزل على عادته من الاشتغال والتعليم.

إلى أن ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال

---

(١) هو الملك الناصر محمد بن قلاوون المتوفى ٧٤١. وكان ذلك سنة ٧١١ بعد عودة الناصر للملك وعزل الجاشنكير (المظفر) الذي كان من أتباع نصر المنبجي، وأشد الحكام على ابن تيمية.

إلى قبور الأنبياء والصالحين[1]، وكان أجاب به من نحو عشرين سنة، فشنعوا عليه بسبب ذلك، وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين بجعله في القلعة، فأخليت له قاعة حسنة وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه، فكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة وظهر بعض ما كتبه واشتهر، وآل الأمر إلى أن مُنع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما عنده من الكتب، ولم يتركوا له دواة ولا قلماً ولا ورقاً، وكتب عقيب ذلك بفحم. وكان إخراج الكتب من عنده

---

(١) وقد أوضح ابن كثير هذه المسألة فقال: إن جواب ابن تيمية في هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء، والصالحين وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحل والسفر إلى مجرد زيارة القبور.

وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى.

والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل بل يستحبها، ويندب إليها وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرض إلى هذه الزيارة في هذا الوجه في الفتيا، ولا قال: إنها معصية، ولا حكى الإجماع على المنع منها، ولا هو جاهل قول الرسول ﷺ. (زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة).

من أعظم النقم، وبقي أشهراً على ذلك، وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين.

* * *

هذا مجمل ما قيل في حالة شيخ الإسلام، ومع ما حاول أعداؤه أن ينغصوا عيشه دأب في كل زمن على التأليف، فألف ثلاثمائة مجلد وكلها في الشرع، وفي حل مسائل عويصة من الدين نقرأ فيما وصلنا منها مثالاً من علمه النفيس، وعمله الذي عقمت القرون أن يأتي رجل بما يماثله.

كثرت تآليفه، لأنه كان يؤلف من صدره، حفظ الكتاب والسنة وما دوِّن في شروحها، وما قاله العلماء في تفسيرهما، وقد ساعدته كثرة محفوظه، وفيض خاطره، وسعة بيانه على تدوين حقائق لم يكتب لعالم مثله في موضوعه، ولو لم يكن له إلا «منهاج السنّة» لكفاه على الأيام فخراً لا يبلى، ففيه مثال من علمه وقوة حجته، ومعرفته بالملل والنحل، وإذا قلنا: إنه لم يؤلَّف نظيره في الرد على المخالفين لأهل السنة، لصدقنا كل منصف من أهل القبلة.

وكتاب «منهاج السنّة» من أصح الشهادات على علو كعبه في معرفة الشرع وما تقلب عليه، وما حاول بعض

أهل الأهواء من العبث به، وفيما أورده الموافقون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها، وكان عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الإسلام، وتاريخ الملل والنحل.

ولو ادعينا: أنه لم يأت عالم (مثله) يعرف ما طرأ على الدين ومذاهب أهله فيه ساعة ويوماً يوماً ما قدر أحد على رد دعوانا.

رد على المعتزلة[1]، وعلى الجهمية[2]، وعلى الشيعة، وعلى الفلاسفة، وعلى غيرهم. فجاء بالعجيب من الآراء التي استخرجها من روح الشريعة واستنبطها ببعد نظره، وشدة بحثه، فما كتب لإمام من الأئمة في عصره وبعد عصره أن يناقضه ويرد أقواله.

---

(١) المعتزلة: فرقة من الفرق الإسلامية وقد سمي أتباعها بالمعتزلة لاعتزال زعيميها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد حلقة الحسن البصري لما اختلفا معه في حكم مرتكب الكبيرة، وقالا: إنه في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً.

(٢) الجهمية: هم الجبرية، ودعوا بالجهمية نسبة إلى جهم بن صفوان وكانوا يقولون: إن الإنسان مجبر لا اختيار له ولا قدرة. وقد مات جهم مقتولاً نحو سنة ١٢٨هـ.

وما سمع لأحد علماء الدين في عصره صوت مثل صوته، في إحقاق الحق، ونصرة سلطان الإسلام.

كان ابن تيمية في النصف الثاني من عمره سراجاً وهاجاً أطفأ بعلمه وعمله شهرة أرباب المظاهر من القضاة والعلماء، وكان الصدر المقدم كلما دخل في موضوع ديني أو سياسي، وعبثاً حاول بعض الشافعية والمالكية أن يسلموه للعامة علهم يقتلونه فما استطاعوا أكثر من حجز حريته أشهراً في سجن، وكان الملوك يحمونه من تعصب خصومه ويعرفون قدره.

وكان الملك الناصر صاحب مصر يرفع من مقام ابن تيمية كثيراً، وأراد أن يقتل من أفتوا بخلعه من العلماء، وحثه على أن يفتيه في قتل بعضهم، فأنكر أن ينال أحداً منهم بسوء، وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال له: أنهم آذوك وأرادوا قتلك مراراً، فقال الشيخ: من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله، فالله ينتقم منه، أنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح.

وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه، فلم نقدر عليه، وقدر علينا، فصفح عنا وحاجج عنا.

فعل هذا ابن تيمية وخصومه يقولون: يجب التضييق عليه إن لم يقتل، وإلا فقد ثبت كفره.

ونحن نقول: إن هذا هو الفرق العظيم بين أخلاقه وأخلاق مشاكسيه، هم كانوا ممن يهتمون لدنياهم ومظاهرهم، وهو كان يهتم للأخرى فقط، وشتان بين المطلبين.

كان يهتم لنشر الدين والقضاء على البدع بقلبه ولسانه وقلمه، وهمهم أن يرضى عنهم السلطان فيبقيهم في مناصبهم ويستميلوا العامة فيقبلوا أيديهم.

قال الذهبي:

وكان أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت فصيحاً، سريع القراءة، تعتريه حدة لكن يقهرها بالحلم...

وقال: تعتريه حدة في البحث وغضب تزرع له عداوة في النفوس(١).

---

(١) تم تلخيص هذه الترجمة من ترجمة للأستاذ محمد كرد علي. طبعها ونشرها المكتب الإسلامي، وعلق عليها وحققها الأستاذ زهير الشاويش.

وفاته في السجن:

قال الحافظ ابن رجب: مكث الشيخ معتقلاً في القلعة من شعبان سنة ست وعشرين إلى ذي القعدة سنة ثمان وعشرين، ثم مرض بضعة وعشرين يوماً، ولم يعلم أكثر الناس بمرضه، ولم يفجأهم إلا موته.

وكانت وفاته في سحر ليلة الإثنين عشري ذي القعدة، ذكره مؤذن القلعة على منارة الجامع وتكلم به الحرس على الأبرجة، فتسامع الناس بذلك واجتمع الناس حول القلعة. حتى أهل الغوطة والمرج.

وغسله جماعة من أكابر الصالحين وأهل العلم كالمزي وغيره.

وأخرج الشيخ إلى جامع دمشق، وصلوا عليه الظهر، وكان يوماً مشهوداً لم يعهد بدمشق مثله.

وصرخ صارخ: هكذا تكون جنائز أئمة السنة، فبكى الناس بكاء كثيراً.

وأخرج من باب البريد واشتد الزحام، وصار النعش على الرؤوس يتقدم تارة ويتأخر أخرى، وخرجت جنازته من باب الفرج، وازدحم الناس على أبواب المدينة جميعاً للخروج، وعظم الأمر بسوق الخيل. . . ودفن وقت العصر بمقابر الصوفية.

وحزر من حضر جنازته بمائتي ألف ومن النساء بخمسة عشر ألفاً. رحمه الله ورضي عنه[1].

(١) شذرات الذهب ٦/ ٨٥ ـ ٨٦.

شهادات

جرت عادتي في هذه السلسلة على وضع هذه الفقرة في الترجمة لبيان مكانة المترجم له، ولو ذهبت أنقل ما قيل عن الإمام ابن تيمية لطال الفصل. ولكني أذكر قليلاً مما قيل، فهو دليل على ما لم أذكره.

قال الحافظ الذهبي:

شيخنا وشيخ الإسلام، وفريد العصر علماً ومعرفة وشجاعة، وذكاء، وتنويراً إلٰهياً، وكرماً ونصحاً للأمة، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

سمع الحديث، وأكثر بنفسه من طلبه، وكتب وخرَّج، ونظر في الرجال والطبقات، وحصل ما لم يحصله غيره، وبرع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه، بطبع سيال، وخاطر وقاد إلى مواضع الإشكال. واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها.

وبرع في الحديث وحفظه، فقلَّ من يحفظ ما يحفظ

من الحديث معزواً إلى أصوله مع شدة استحضاره له وقت إقامة الدليل.

وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب، وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب. بل بما يقوم دليله عنده.

وأتقن العربية أصولاً وفروعاً، وتعليلاً واختلافاً.

ونظر في العقليات وعرف أقوال المتكلمين ورد عليهم... ونصر السنة..

وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه.

وقال: كان بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث.

وقال الحافظ الزملكاني:

كان إذا سئل عن فن من العلم، ظنَّ الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله.

وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك.

ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله.

واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها.

وقال الحافظ ابن سيد الناس:

ألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً. وكان يستوعب السنن والآثار حفظاً.. برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه.

وقال الشيخ عماد الدين الواسطي:

قال بعد ثناء جميل ما لفظه: فوالله ثم والله ثم والله لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية، علماً وعملاً، وحالاً وخلقاً واتباعاً... وقياماً في حق الله عند انتهاك حرماته.

أصدق الناس عقداً وأصحهم علماً... وأكملهم اتباعاً لنبيه محمد ﷺ. ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية وسنتها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل. يشهد القلب الصحيح: أن هذا هو الاتباع حقيقة.

وقال الشيخ ابن دقيق العيد:

رأيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه يأخذ ما شاء منها، ويترك ما شاء.

وقال الحافظ المزي:

ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله، ولا أتبع لهما منه.

وقال الشيخ أبو عبد الله بن قوام:

ما أسلمت معارفنا إلا على يد ابن تيمية.

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي:

كانت العلماء والصلحاء والجند والأمراء والتجار. وسائر العامة تحبه، لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً بلسانه وعلمه(١).

---

(١) انظر هذه الأقوال في شذرات الذهب ٦/ ٨٠ ـ ٨٥.

هَـذِهِ المَـوَاعِظ

لم يكن الإمام ابن تيمية واعظاً بالمعنى المتعارف عليه، أي أنه اتخذ مجلساً يعظ به الناس، ولم ينقل عنه ذلك.

وإنما كان في علمه إماماً مجتهداً يحقق المسائل ويفتي. . . كما كان إماماً مصلحاً، وجه اهتمامه إلى نشر الدين، ومحاربة البدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

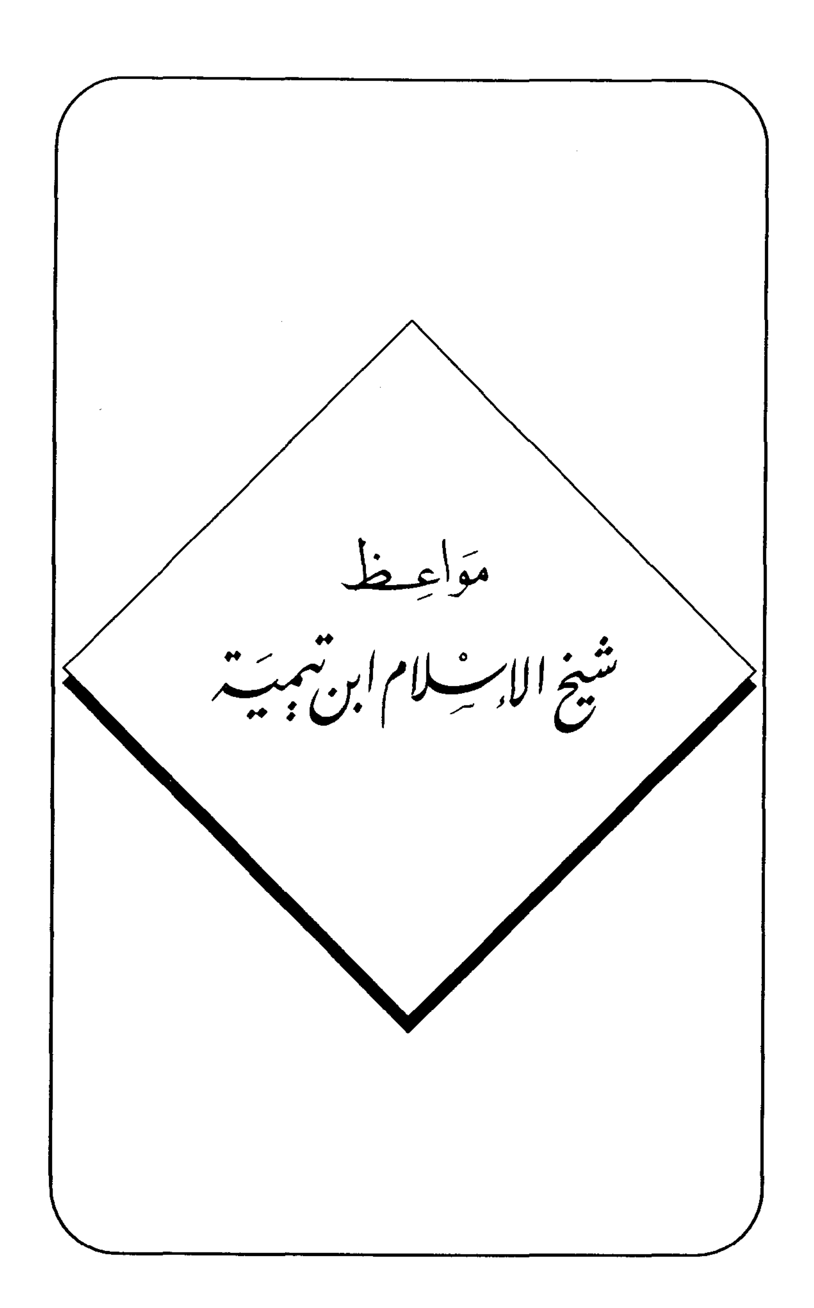
كما جاهد أعداء الإسلام بقلمه وسيفه.

ولذا فإن إطلاق «المواعظ» على هذه الكلمات المنتقاة، إنما هو إطلاق عليها بالمفهوم الواسع الذي يشمل: النصيحة، والموعظة، وتصحيح المفاهيم، وتوضيح الغامض، وتأصيل المسائل. . وليس بالمفهوم الخاص الذي يعني «الرقائق».

وهي كلمات انتقيتها أثناء رجوعي إلى كتاب «الفتاوى» فأحببت أن تأخذ مكانها في سلسلة «معالم

في التربية والدعوة» راجياً الله تعالى أن ينتفعنا بها.

والخيرَ أردت، فأرجو أن أكون قد وفقت إليه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.


مَواعِظ
شيخ الإسلام ابن تيمية


الحِكمَة وَالموعِظَة
مِن أسْبَابِ صَلاح القَلبِ وَشِفَائِه
ابن تيمية

أعمال القلوب

قال أبو العباس:

أعمال القلوب ـ التي قد تسمى: المقامات والأحوال ـ هي من أصول الإيمان، وقواعد الدين، مثل:

محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك.

فهذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق، باتفاق أئمة الدين[1].

أصل الدين

قال أبو العباس:

الإخلاص: هو حقيقة الإسلام.

إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره.

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٥ ـ ٦.

فمن لم يستسلم لله فقد استكبر.

ومن استسلم لله ولغيره، فقد أشرك.

وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام.

ولهذا كان رأس الإسلام «شهادة أن لا إلٰه إلا الله».

وهي متضمنة عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران][1].

وهذا يبين أن أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها[2].

الحياء

قال أبو العباس:

الحياء مشتق من الحياة، فإن القلب الحي يكون صاحبه حياً، فيه حياء يمنعه عن القبائح، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب[3].

---

(١) الفتاوى ١٠/ ١٤ ـ ١٥.

(٢) الفتاوى ١٠/ ١٠٩.

(٣) الفتاوى ١٠/ ١٠٩.

آثار الحسنة

قال أبو العباس:

البر والتقوى يبسط النفس، ويشرح الصدر، بحيث يجد الإنسان في نفسه اتساعاً وبسطاً عما كان عليه قبل ذلك، فإنه لما اتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه الله وشرح صدره.

والفجور والبخل يقمع النفس، ويضعها ويهينها، بحيث يجد البخيل في نفسه أنه ضيق.

قال ابن عباس: «إن للحسنة لنوراً في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق.

وإن للسيئة لظلمة في القلب، وسواداً في الوجه، ووهناً في البدن، وضيقاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق»[١].

جهاد النفس

قال أبو العباس:

يحتاج المسلم إلى أن يخاف الله، وينهى النفس عن الهوى.

---

(١) الفتاوى ١٠/٦٢٩ ـ ٦٣٠.

ونفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه، بل على اتباعه والعمل به.

فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها، كان نهيه عبادة لله، وعملاً صالحاً وثبت عنه [ﷺ] أنه قال: (المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله). فيؤمر بجهادها.

كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها.

وهو إلى جهاد نفسه أحوج، فإن هذا فرض عين، وذاك فرض كفاية.

فكل ما وقع في قلب المؤمن من خواطر الكفر والنفاق، فكرهه وألقاه، ازداد إيماناً ويقيناً.

كما أن كل من حدثته نفسه بذنب، فكرهه ونفاه عن نفسه، وتركه لله، ازداد صلاحاً وبراً وتقوى[١].

محو الذنوب

قال أبو العباس:

الذنوب يزول موجبها بأشياء:

أحدها: التوبة.

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٦٣٥ ـ ٦٣٦، ٧٦٧.

الثاني: الاستغفار من غير توبة، فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب.

فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال.

الثالث: الأعمال الصالحة المكفِرة.

فأنفع ما للخاصة والعامة، العلم بما يخلِّص النفوس من الورطات، وهو إتباع السيئات الحسنات. والحسنات: ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات.

الرابع: ومما يزيل موجب الذنوب: المصائب المكفرة، وهي كل ما يؤلم من همٍّ، أو حزن، أو أذى في مال أو عرض، أو جسد، أو غير ذلك.

لكِّن ليس هذا من فعل العبد[1].

تناصح

قال أبو العباس:

قال سفيان بن عيينة: كان العلماء فيما مضى يكتب بعضهم إلى بعض بهؤلاء الكلمات:

من أصلح سريرته، أصلح الله علانيته.

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٦٥٥، ٦٥٨.

ومن أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس.

ومن عمل لآخرته، كفاه الله أمر دنياه[١].

الحكمة في أوامر الله تعالى

قال أبو العباس:

إن كل ما أمر الله به، أمر به لحكمة، وما نهى عنه نهى لحكمة.

وهذا مذهب أئمة الفقهاء قاطبة، وسلف الأمة، وأئمتها وعامتها، فالتعبد المحض بحيث لا يكون فيه حكمة لم يقع.

وأما رمي الجمار، والسعي بين الصفا والمروة، فالفعل في نفسه مقصود لما تضمنه من ذكر الله. قال ﷺ: (إنما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله)[٢] فكيف يقال: لا حكمة؟

وأما فعل مأمور في الشرع ليس فيه مصلحة، ولا منفعة ولا حكمة إلا مجرد الطاعة، والمؤمنون يفعلونه، فهذا لا أعرفه[٣].

---

(١) الفتاوى ٧/ ٩.

(٢) رواه أبو داود (١٨٨٨).

(٣) الفتاوى ١٤/ ١٤٤ ـ ١٤٦.

أصل السعادة

قال أبو العباس:

والله سبحانه قد تفضل على بني آدم بأمرين، هما أصل السعادة.

أحدهما: أن كل مولود يولد على الفطرة.

فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية، محبة له، تعبده لا تشرك به شيئاً، ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل.

الثاني: أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة، بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم، وبما أنزل إليهم من الكتب، وأرسل إليهم من الرسل[١].

توقير العلماء

قال أبو العباس:

يجب على المسلمين ـ بعد موالاة الله ورسوله ـ موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن، خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر.

---

(١) الفتاوى ١٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم. . . فإنهم خلفاء الرسول في أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا.

وليعلم: أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته، دقيق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ[١].

النيـة

قال أبو العباس:

النية محلها القلب باتفاق العلماء. فإن نوى بقلبه ولم يتكلم بلسانه أجزأته النية باتفاقهم.

فإن النبي ﷺ وأصحابه والتابعين لم ينقل عن واحد منهم أنه تكلم بلفظ النية، لا في صلاة، ولا طهارة، ولا صيام[٢].

---

(١) الفتاوى ٢٠/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٢) الفتاوى ١٨/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

الدليل القرآني

قال أبو العباس:

إن إثبات الصانع في القرآن بنفس آياته، التي يستلزم العلم بها العلم به، كاستلزام العلم بالشعاع العلمَ بالشمس، من غير احتياج إلى قياس كلي[1].

خوف الله وحده

قال أبو العباس:

بعض الناس يقول: يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك.

فهذا كلام ساقط لا يجوز.

بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحداً.

فإن من لا يخاف الله أذل من أن يُخاف، فإنه ظالم من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نهى الله عنه.

وأنت إذا خفت الله فاتقيته وتوكلت عليه كفاك شر كل شر، ولم يسلطه عليك فإنه قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٦٥].

وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه، فإذا

---

(١) الفتاوى ٢/ ٩.

خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرته لم يسلط عليك، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال][1].

تحريك القلوب

قال أبو العباس:

محركات القلوب إلى الله عزّ وجلّ ثلاثة:

- المحبة.
- والخوف.
- والرجاء.

وأقواها المحبة، وهي مقصودة تراد لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف، فإنه يزول في الآخرة. قال الله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس][2].

علماء الحديث

قال أبو العباس:

ولم يزل أهل العلم في القديم والحديث يعظمون

---

(١) الفتاوى ١/ ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) الفتاوى ١/ ٩٥.

نقلة الحديث، حتى قال الشافعي رضي الله عنه:

«إذا رأيتُ رجلاً من أهل الحديث، فكأني رأيت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ».

وإنما قال الشافعي هذا، لأنهم في مقام الصحابة من تبليغ حديث النبي ﷺ[1].

طهارتان

قال أبو العباس:

إن الله تعالى أمر بطهارة القلب، وأمر بطهارة البدن، وكلا الطهارتين من الدين الذي أمر الله به وأوجبه.

فنجد كثيراً من المتفقهة والمتعبدة، إنما همته طهارة البدن فقط، ويزيد فيها على المشروع، اهتماماً وعملاً، ويترك من طهارة القلب ما أمر به، إيجاباً أو استحباباً. ولا يفهم من الطهارة إلا ذلك.

ونجد كثيراً من المتصوفة، إنما همته طهارة القلب فقط، حتى يزيد فيها على المشروع اهتماماً وعملاً، ويترك من طهارة البدن ما أمر به إيجاباً أو استحباباً.

---

(١) الفتاوى ١/ ١١.

فالأولون يخرجون إلى الوسوسة المذمومة في كثرة صب الماء.. واجتناب ما لا يشرع اجتنابه، مع اشتمال قلوبهم على أنواع من الحسد والكبر...

والآخرون يخرجون إلى الغفلة المذمومة، فيبالغون في سلامة الباطن.. وقد لا يجتنبون النجاسات[1].

توبتان

قال أبو العباس:

التوبة نوعان: واجبة ومستحبة.

- فالواجبة: هي التوبة من ترك مأمور، أو فعل محظور، وهذه واجبة على جميع المكلفين، كما أمرهم الله بذلك في كتابه، وعلى ألسنة رسله.

- والمستحبة: هي التوبة من ترك المستحبات، وفعل المكروهات.

فمن اقتصر على التوبة الأولى، كان من الأبرار المقتصدين.

ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين[2].

---

(١) الفتاوى ١/ ١٥.

(٢) جامع الرسائل لابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، ص(٢٢٧)، مطبعة المدني - القاهرة.

الكبر والحسد

قال أبو العباس:

الكبر والحسد، هما داءان أهلكا الأولين والآخرين، وهما أعظم الذنوب التي عُصيَ بها الله أولاً.

فإن إبليس استكبر وحسد آدم.

وكذلك ابن آدم الذي قتل أخاه حسد أخاه.

ولهذا كان الكبر ينافي الإسلام.

كما أن الشرك ينافي الإسلام.

فإن الإسلام: هو الاستسلام لله وحده.

فمن استسلم له ولغيره، فهو مشرك به.

ومن لم يستسلم له فهو مستكبر، كحال فرعون وملئه.

ومن أسلم وجهه لله حنيفاً فهو المسلم الذي على ملة إبراهيم الذي ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة][١].

الحاجة إلى الخلق ذل

قال أبو العباس:

العبد كلما كان أذل لله، وأعظم افتقاراً إليه،

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية، ص(٢٣٣ ـ ٢٣٤).

وخضوعاً له، كان أقرب إليه، وأعظم لقدره.

فأسعد الخلق، أعظمهم عبودية لله.

وأما المخلوق، فكما قيل:

- احتج إلى من شئت تكن أسيره.

- واستغن عمن شئت تكن نظيره.

- وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق، إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه.

فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم، كنت أعظم ما يكون عندهم.

ومتى احتجت إليهم - ولو في شربة ماء - نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم.

ولهذا قال حاتم الأصم - لما سئل: فيم السلامة من الناس؟ - قال:

أن يكون شيئك لهم مبذولاً، وتكون من شيئهم آيسا[1].

---

(١) الفتاوى ١/ ٣٩.

السعادة في معاملة الخلق

قال أبو العباس:

والسعادة في معاملة الخلق: أن تعاملهم لله:

فترجو الله فيهم، ولا ترجوهم في الله.

وتخافه فيهم، ولا تخافهم في الله.

وتحسن إليهم رجاء ثواب الله، لا لمكافأتهم.

وتكف عن ظلمهم خوفاً من الله، لا منهم[١].

الاجتماع والفرقة

قال أبو العباس:

سبب الاجتماع والألفة: جمع الدين، والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ـ كما أمر به ـ باطناً وظاهراً.

وسبب الفرقة: ترك حظٍ مما أمر العبد به.

ونتيجة الجماعة: رحمة الله ورضوانه وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة.

ونتيجة الفرقة: عذاب الله تعالى[٢].

---

(١) الفتاوى ١/٥١.

(٢) الفتاوى ١/١٧.

أنواع الحقوق

قال أبو العباس:

الحقوق قسمان: حق لله، وحق لعباده.

فحق الله: أن نعبده ولا نشرك به شيئاً.

وحقوق العباد قسمان: خاص، وعام.

ـ أما الخاص: فمثل برّ كل إنسان والديه، وحق زوجته، وجاره، فهذه من فروع الدين.

ـ وأما الحقوق العامة: فالناس نوعان: رعاة ورعية:

فحقوق الرعاة: مناصحتهم.

وحقوق الرعية: لزوم جماعتهم[1].

الاتباع

قال أبو العباس:

العبادات مبناها على الشرع والاتباع، لا على الهوى والابتداع. فإن الإسلام مبني على أصلين:

أحدهما: أن نعبد الله وحده لا شريك له.

والثاني: أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا نعبده بالأهواء والبدع[2].

---

(١) الفتاوى ١/ ١٨.

(٢) الفتاوى ١/ ٨٠.

فقهاء الحديث

قال أبو العباس:

كان طائفة من أئمة المصنفين للسنن على الأبواب، إذا جمعوا فيها أصناف العلم، ابتدؤوها بأصل العلم والإيمان.

كما ابتدأ البخاري «صحيحه» ببدء الوحي ونزوله.. ثم أتبعه بكتاب الإيمان... ثم بكتاب العلم... فرتبه الترتيب الحقيقي.

وكذا الإمام أبو محمد الدارمي، صاحب «المسند»، ابتدأ كتابه بدلائل النبوة.

وهذان الرجلان أفضل بكثير من مسلم والترمذي ونحوهما. ولهذا كان أحمد بن حنبل يعظم هذين ونحوهما، لأنهم فقهاء في الحديث أصولاً وفروعاً[١].

عبد الله

قال أبو العباس:

إنما عبد الله:

من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله.

---

(١) الفتاوى ٢/ ٤.

ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغض الله ورسوله.

ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله تعالى.

وهذا هو الذي استكمل الإيمان.

كما في الحديث: (من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان)[1].

وقال: (أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله)[2][3].

رجاء عفو الله

قال أبو العباس:

لا بد من العمل المأمور به.

ولا بد من رجاء رحمة الله وعفوه وفضله، وشهود العبد لتقصيره، ولفقره إلى فضل ربه، وإحسان ربه إليه.

لا يعجب العبد بعمله، بل يشهد نعم الله عليه، وإحسانه إليه في العمل وأن لا يستكثر العمل، فإن عمله لو بلغ ما بلغ إن لم يرحمهُ الله ويعف عنه

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٨١).

(٢) رواه أحمد ٤/٢٨٦.

(٣) الفتاوى ١٠/١٩٠.

ويتفضل عليه، لم يستحق به شيئاً.

وقد قال سفيان بن عيينة: كانوا يقولون:

ينجون من النار بالعفو.

ويدخلون الجنة بالرحمة.

ويتقاسمون المنازل بالأعمال[1].

توبة الأنبياء

قال أبو العباس:

قد اتفق سلف الأمة وأئمتها ومن اتبعهم: على ما أخبر الله به في كتابه، وما ثبت عن رسوله: من توبة الأنبياء من الذنوب التي تابوا منها. وهذه التوبة رفعَ الله بها درجاتهم، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

وعصمتهم هي من أن يُقرُّوا على الذنوب والخطأ.

فإن مَنْ سوى الأنبياء يجوز عليهم الذنب والخطأ من غير توبة.

والأنبياء يستدركهم الله فيتوب عليهم.. كما قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية، ص(١٥١).

أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ [الحج][1].

أصول وفروع

قال أبو العباس:

الدين أول ما يبنى من أصوله، ويكمل بفروعه.

- كما أنزل الله بمكة أصوله: من التوحيد، والأمثال التي هي المقاييس العقلية، والقصص والوعد والوعيد.

- ثم أنزل بالمدينة - لما صار له قوة - فروعه الظاهرة من: الجمعة والجماعة والأذان والإقامة، والجهاد والصيام، وتحريم الخمر والزنا والميسر، وغير ذلك من واجباته ومحرماته.

فأصوله تمد فروعه وتثبتها.

وفروعه تكمل أصوله وتحفظها.

فإذا وقع فيه نقص ظاهر، فإنما يقع ابتداء من جهة فروعه. ولهذا قال ﷺ: (أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة).

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية، ص(٢٦٩).

فالصلاة هي أول فرض، وهي من أصول الدين والإيمان.. فلا تذهب إلا في الآخر[1].

علامة الحب

قال أبو العباس:

حب الله ورسوله موجود في قلب كل مؤمن، لا يمكنه دفع ذلك من قلبه إذا كان مؤمناً.

وتظهر علامات حبه لله ورسوله إذا أخذ أحد يسب الرسول ويطعن عليه، أو يسب الله ويذكره بما لا يليق، فالمؤمن يغضب لذلك أعظم مما يغضب لو سُبَّ أبوه وأمه[2].

مرض القلب

قال أبو العباس:

مرض القلب: هو نوع فساد يحصل له، يفسدُ به: تصوره وإرادته.

ـ فتصوره: بالشبهات التي تعرض له، حتى لا يرى الحق، أو يراه على خلاف ما هو عليه.

---

(١) الفتاوى ١٠/٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٢) الفتاوى ١٦/٣٤٣.

ـ وإرداته: بحيث يبغض الحق النافع، ويحب الباطل الضار.

فلهذا:

يفسر المرض تارة بالشك والريب مثل قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:٢].

وتارة يفسر بشهوة الزنا، مثل قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢].

والمرض في الجملة، يضعف المريض، بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوي.

والمرض دون الموت.

فالقلب يموت بالجهل المطلق، ويمرض بنوع من الجهل، فله موت ومرض، وحياة وشفاء.

وحياته وموته، ومرضه وشفاؤه، أعظم من حياة البدن وموته، ومرضه وشفائه.

فلهذا: مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قَوَّتْ مرضه، وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه[1].

---

(١) الفتاوى ١٠/٩٣ ـ ٩٤.

شفاء القرآن

قال أبو العباس:

والقرآن شفاء لما في الصدور.

ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات، ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدرك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة ـ بالترغيب والترهيب، والقصص التي فيها عبرة ـ ما يوجب صلاح القلب.

فالقرآن: مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي.

ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده، كما يغتذي البدن بما ينميه ويقومه. فإن زكاة القلب مثل نماء البدن[١].

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٩٥ ـ ٩٦.

الثواب والمشقة

قال أبو العباس:

قول بعض الناس: الثواب على قدر المشقة، ليس بمستقيم على الإطلاق.

فالأجر على قدر الطاعة، فقد تكون الطاعة لله ورسوله في عمل ميسر، كما يسر الله على أهل الإسلام «الكلمتين» وهما أفضل الأعمال.

ولذلك قال النبي ﷺ: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)[1].

ولو قيل: الأجر على قدر منفعة العمل وفائدته، لكان صحيحاً.

فأما كونه مشقاً فليس هو سبباً لفضل العمل ورجحانه.

ولكن: قد يكون العمل الفاضل مشقاً، ففضله لمعنى غير مشقته، والصبر عليه مع المشقة يزيد ثوابه وأجره، فيزداد الثواب بالمشقة، كمن كان بُعْدُه عن البيت في الحج والعمرة أكثر، يكون أجره أعظم من القريب.

فكثيراً ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب، لا

---

(١) رواه البخاري (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤).

لأن التعب والمشقة مقصود من العمل، ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب.

هذا في شرعنا الذي رفعت عنا فيه الآصار والأغلال، ولم يجعل علينا فيه حرج[1].

الحسد

قال أبو العباس:

إن «الحسد» مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب، فلا يخلص منه إلا قليل من الناس. ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد، لكن اللئيم يبديه، والكريم يخفيه.

وقد قيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك إخوة يوسف لا أبا لك؟! ولكن عَمِّهِ[2] في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعدِّيه[3] يداً ولساناً.

فمن وجد في نفسه حسداً لغيره: فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر،فيكره ذلك من نفسه[4].

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٦٢٠ ـ ٦٢٢.

(٢) عمه: أي غيبه في صدرك فلا يطلع عليه أحد.

(٣) تعديه: أي تتجاوز به إلى اليد واللسان.

(٤) الفتاوى ١٠/ ١٢٤ ـ ١٢٥.

العبادة

قال أبو العباس:

العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله.

وخشية الله والإنابة إليه.

وإخلاص الدين له.

والصبر لحكمه، والشكر لنعمه.

والرضا بقضائه، والتوكل عليه.

والرجاء لرحمته والخوف لعذابه.

وأمثال ذلك هي من العبادة لله تعالى[١].

---

(١) الفتاوى ١٠/١٤٩ ـ ١٥٠.

حسنة تدخل النار

قال أبو العباس:

قال طائفة من السلف، منهم سعيد بن جبير:

إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة.

يعمل الحسنة فيعجب بها، ويفتخر بها، حتى تدخله النار.

ويعمل السيئة فلا يزال خوفه منها، وتوبته منها حتى تدخله الجنة[١].

المولود في الإسلام ومن أسلم

قال أبو العباس:

ما يظنه بعض الناس: أنه من ولد على الإسلام، فلم يكفر قط، أفضل ممن كان كافراً فأسلم. ليس بصواب.

بل الاعتبار بالعاقبة. وأيهما كان أتقى لله في عاقبته كان أفضل.

فإنه من المعلوم أن السابقين الأولين من المهاجرين

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٢٩٤.

والأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله بعد كفرهم، هم أفضل ممن ولد على الإسلام. من أولادهم وغير أودلاهم[1].

الصلاة كالإيمان

قال أبو العباس:

الصلاة كالإيمان لا تدخلها النيابة بحال، فلا يصلي أحد عن أحد الفرض، لا لعذر ولا لغير عذر، كما لا يؤمن أحد عن أحد.

ولا تسقط بحال، كما لا يسقط الإيمان.

بل عليه الصلاة ما دام عقله حاضراً، وهو متمكن من فعل بعض أفعالها[2].

الخطاب الإسلامي يتناول المكلفين

قال أبو العباس:

حديث: «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم».

هذا لم يروه أحد من علماء المسلمين الذين يعتمد عليهم في الرواية، وليس هو في شيء من كتبهم.

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٣٠٠.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٤٣٩.

وخطاب الله ورسوله للناس، عام يتناول جميع المكلفين. كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

وكذلك النبي ﷺ كان يخاطب الناس على منبره بكلام واحد، يسمعه كل أحد.

لكن الناس يتفاضلون في فهم الكلام، بحسب ما يخص الله به كل واحد منهم من قوة الفهم، وحسن العقيدة.

ولهذا كان أبو بكر الصديق أعلمهم بمراده، كما في الصحيحين عن أبي سعيد: أن النبي ﷺ خطب الناس فقال:

(إن عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة، فاختار ذلك العبد ما عند الله).

قال: فبكى أبو بكر، وقال: نفديك بأنفسنا وأموالنا.

فجعل الناس يعجبون منه ويقولون: عجباً لهذا الشيخ، بكى أن ذكر رسول الله ﷺ عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة.

قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا به.

فالنبي ﷺ ذكر عبداً مطلقاً لم يعينه، ولكنْ أبو بكر عرف عينه[1][2].

أثر النية في الفعل

قال أبو العباس:

الفعل الواحد ـ في الظاهر ـ يثاب الإنسان على فعله مع النية الصالحة، ويعاقب على فعله مع النية الفاسدة:

فمن حج ماشياً لقوته على المشي، وآثر بالنفقة، كان مأجوراً أجرين، أجر المشي، وأجر الإيثار.

ومن حج ماشياً بخلاً بالمال، إضراراً بنفسه،

---

(١) الفتاوى ١٨/٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٢) ما ذهب إليه الإمام هو الصواب في أمر خطاب الله تعالى ورسوله ﷺ، يؤيده قوله ﷺ: (نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما، وعند الترمذي (فرب مبلَّغ أوعى من سامع).
أما بقية الدعاة إلى الله فينبغي أن يكون خطابهم متناسباً مع المخاطبين، وهو ما رواه البخاري عن علي رضي الله عنه من قوله: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله» وترجم له البخاري بقوله: «باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا».

كان آثماً إثمين، إثم البخل وإثم الإضرار.

ومن حج راكباً، لضعفه عن المشي، وللاستعانة بذلك على راحته، ليتقوى بذلك على العبادة، كان مأجوراً أجرين.

ومن حج راكباً، يظلم الجمال، والحمال، كان آثماً إثمين[(١)].

التزام السنة

قال أبو العباس:

سأل رجل مالك بن أنس عن الإحرام قبل الميقات؟

فقال: أخاف عليك الفتنة.

فقال له السائل: أي فتنة في ذلك؟ وإنما هي زيادة أميال في طاعة الله عزّ وجلّ.

فقال: وأي فتنة أعظم من أن تظن في نفسك أنك خُصِصتَ بفعل لم يفعله رسول الله ﷺ[(٢)].

معرفة الجاهلية

قال أبو العباس:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تنقض عرى

---

(١) الفتاوى ٢٢/١٣٨.

(٢) الفتاوى ٢٢/٢٢٣.

الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية».

فمن عرف الشر وذاقه، ثم عرف الخير وذاقه ـ فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له، ومعرفته بالشر وبغضه له ـ أكمل ممن لم يعرف الخير والشر ويذقهما كما ذاقهما.

بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف أنه شر، فإما أن يقع فيه، وإما أن لا ينكره كما أنكره الذي عرفه[1].

التوبة العامة

قال أبو العباس:

الناس في غالب أحوالهم، لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم إلى ذلك.

فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال، لأنه دائماً يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور، أو ما اعتدى فيه من فعل محظور[2]. فعليه أن يتوب دائماً.

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٣٠١.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٣٣٠.

نعمة الشدة

قال أبو العباس:

من تمام نعمة الله على عباده المؤمنين، أن ينزل بهم الشدة والضر، وما يلجئهم إلى توحيده، فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجونه ولا يرجون أحداً سواه، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره.

فيحصل لهم من التوكل عليه، والإنابة إليه، وحلاوة الإيمان، وذوق طعمه، والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف أو الجدب، أو حصول اليسر، وزوال العسر في المعيشة.

فإن ذلك[1] لذَّاتٌ بدنية ونعم دنيوية، قد يحصل للكافر منها أعظم مما يحصل للمؤمن[2].

الأذكار الثلاثة

قال أبو العباس:

الأذكار الثلاثة التي اشتملت عليها خطبة ابن مسعود وغيره، وهي:

---

(١) أي حصول اليسر وزوال العسر في المعيشة.
(٢) الفتاوى ١٠/ ٣٣٣.

«الحمد لله، نستعينه، ونستغفره» هي التي يروى عن الشيخ عبد القادر ثم أبي الحسن الشاذلي: أنها جوامع الكلم النافع.

وهي: الحمد لله، واستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وذلك أن العبد بين أمرين:

- أمر يفعله الله به، فهي نعم الله التي تنزل عليه، فتحتاج إلى الشكر.

- وأمر يفعله هو: إما خير، وإما شر.

فالخير يفتقر إلى معونة الله له، فيحتاج إلى الاستعانة.

والشر يفتقر إلى الاستغفار، ليمحو أثره[١].

لا يأس في الإسلام

قال أبو العباس:

نهى الله نبيه أن يصيبه حزن أو ضيق ممن لم يدخل في الإسلام، في أول الأمر.

فكذلك في آخره.

---

(١) الفتاوى ١٨/ ٢٨٥.

فالمؤمن منهي أن يحزن عليهم، أو يكون في ضيق من مكرهم.

وكثير من الناس إذا رأى المنكر، أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزع وَكَلَّ وناح كما ينوح أهل المصائب.

وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى.

وأن ما يصيبه فهو بذنوبه فليصبر، إن وعد الله حق، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار[١].

الحسنات والإخلاص

قال أبو العباس:

الحسنات كلها يشترط فيها: الإخلاص لله، وموافقة أمره.

كما قال الفضيل بن عياض في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧] قال: أخلصه وأصوبه.

قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟

قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم

(١) الفتاوى ١٨/ ٢٩٥.

يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص: أن يكون لله.

والصواب: أن يكون على السنة.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً»[١].

أنواع الدعاء

قال أبو العباس:

الدعاء نوعان:

- دعاء العبادة.
- ودعاء المسألة.

فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان.

فإن دعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود، لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر.

فهو يدعو للنفع والضر دعاء المسألة.

(١) الفتاوى ١٠/٣١٨.

ويدعو خوفاً ورجاء دعاء العبادة.

فعلم أن النوعين متلازمان: فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة[1].

نية المرء أبلغ من عمله

قال أبو العباس:

هذا الكلام قاله غير واحد.. وبيانه من وجوه:

أحدها: أن النية المجردة من العمل يثاب عليها، والعمل المجرد عن النية لا يثاب عليه. وفي الصحيحين قوله ﷺ: (من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة).

الثاني: أن من نوى الخير، وعمل منه مقدوره، وعجز عن إكماله، كان له أجر عامل. كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم) قالوا: وهم بالمدينة؟ قال (وهم بالمدينة حبسهم العذر).

الثالث: أن النية لا يدخلها الفساد، بخلاف الأعمال الظاهرة[2].

---

(١) الفتاوى ١٥/١٠ ـ ١١.

(٢) الفتاوى ٢٢/٢٤٣ ـ ٢٤٥.

التسبيح بالحصى

قال أبو العباس:

عَدُّ التسبيح بالأصابع سنة، كما قال ﷺ للنساء: (سبحن واعقدن بالأصابع فإنهن مسؤولات مستنطقات)[1].

وأما عدّه بالنوى والحصى ونحو ذلك فحسن.

وكان من الصحابة رضي الله عنهم من يفعل ذلك، وقد رأى النبي ﷺ أم المؤمنين تسبح بالحصى، وأقرها على ذلك. وروي أن أبا هريرة كان يسبح به.

وأما التسبيح بما يجعل في نظام من الخرز، ونحوه، فمن الناس من كرهه، ومنهم من لم يكرهه، وإذا حسنت فيه النية فهو حسن غير مكروه.

وأما اتخاذه من غير حاجة، أو إظهاره للناس مثل تعليقه بالعنق. . فهذا إما رياء للناس، أو مظنة المراءاة[2].

ملازمة الطاعة

قال أبو العباس:

قال الشيخ أبو محمد، عبد القادر [الجيلاني] في كتاب: «فتوح الغيب»:

---

(١) رواه أبو داود (١٥٠١)، والترمذي (٣٤٨٦م، ٣٥٨٣).

(٢) الفتاوى ٢٢/٥٠٦.

«لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء:

- أمر يمتثله.
- ونهي يجتنبه.
- وقدر يرضى به.

فأقل حالة لا يخلو المؤمن فيها عن أحد هذه الأشياء الثلاثة.

فينبغي له أن يلزم بها قلبه، ويحدث بها نفسه، ويأخذ بها الجوارح في كل أحواله».

قلت:

هذا كلام شريف جامع، يحتاج إليه كل أحد، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد.

فحقيقة الأمر: أن كل عبد فإنه محتاج في كل وقت إلى طاعة الله ورسوله، وإنما كانت الثلاثة ترجع إلى امتثال الأمر:

- لأنه في الوقت الذي يؤمر فيه بفعل شيء من الفرائض: كالصلوات الخمس، والحج ونحو ذلك، يحتاج إلى فعل المأمور.

- وفي الوقت الذي تحدث أسباب المعصية، يحتاج إلى الامتناع والكراهة والإمساك عن ذلك.

ـ وأما القدر الذي يرضى به، فإنه إذا ابتلي بالمرض أو الفقر أو الخوف، فهو مأمور بالصبر أمر إيجاب، ومأمور بالرضا، إما أمر إيجاب. وإما أمر استحباب، على قولين.

ونفس الصبر والرضا بالمصائب هو طاعة لله ورسوله، فهو من امتثال الأمر، وهو عبادة لله تعالى[1].

لست بالخب

قال أبو العباس:

كان عمر بن الخطاب ﵁ يقول: «لست بخب[2]، ولا يخدعني الخب».

فالقلب السليم المحمود: هو الذي يريد الخير لا الشر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر.

فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به[3].

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٤٥٥ ـ ٤٥٧.

(٢) الخب: الرجل الخدَّاع.

(٣) الفتاوى ١٠/ ٣٠٢.

أفضل العبادات

قال أبو العباس:

أفضل العبادات البدنية: الصلاة، ثم القراءة، ثم الذكر، ثم الدعاء.

والمفضول في وقته الذي شرع فيه أفضل من الفاضل، كالتسبيح في الركوع والسجود، فإنه أفضل من القراءة.

وكذلك الدعاء في آخر الصلاة أفضل من القراءة.

ثم قد يفتح على الإنسان في العمل المفضول، ما لا يفتح عليه في العمل الفاضل، وقد ييسر عليه هذا دون هذا، فيكون هذا أفضل في حقه لعجزه عن الأفضل[١].

الزهد المشروع

قال أبو العباس:

الزهد المشروع هو:

- ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة.
- وثقة القلب بما عند الله.

كما في الحديث الذي في الترمذي (ليس الزهد في

---

(١) الفتاوى ١٠/٤٠١.

الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق بما في يدك...)[1].

فهذا صفة القلب

وأما في الظاهر: فكل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع.

بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله، من مطعم وملبس ومال وغير ذلك.

كما قال الإمام أحمد: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وصبر أيام قلائل[2].

لزوم السنة

قال أبو العباس:

ما أحسن ما جاء عن «عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة» أنه قال:

«عليك بلزوم السنة، فإنها لك بإذن الله عصمة.

فإن السنة إنما جعلت لِيُسْتَنَّ بها، ويُقتصر عليها.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٠)، وابن ماجه (٤١٠٠) وضعفه الألباني.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٦٤١ ـ ٦٤٢ و١١/ ٢٨.

وإنما سنَّها من قد علم ما في خلافها من الزلل والخطأ، والحمق والتعمق».

فارض لنفسك بما رضوا به لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كُفوا، ولَهُم كانوا على كشفها أقوى، وبتفصيلها ـ لو كان فيها ـ أحرى.

وإنهم لهم السابقون، وقد بلغهم عن نبيهم ما يجري من الاختلاف بعد القرون الثلاثة. فلئن كان الهدى ما أنتم عليه، لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم: حدثٌ حدثَ بعدهم، فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم واختار ما نحته فكره على ما تلقوه عن نبيهم، وتلقاه عنهم من تبعهم بإحسان[١].

إيمان عوام المؤمنين

قال أبو العباس:

إن ما عند عوام المؤمنين، وعلمائهم أهل السنة والجماعة، من المعرفة واليقين والطمأنينة، والجزم الحق، والقول الثابت، والقطع بما هم عليه، أمر لا ينازع فيه إلا من سلبه الله العقل والدين[٢].

---

(١) الفتاوى ٤/ ٧ ـ ٨.

(٢) الفتاوى ٤/ ٤٩.

كلمة استعانة

قال أبو العباس:

قال الشبلي بين يدي الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله.

فقال الجنيد: قولك ذا ضيق صدر، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء.

قال أبو العباس: فإن هذا من أحسن الكلام، وكان الجنيد رضي الله عنه سيد الطائفة، ومن أحسنهم تعليماً وتأديباً وتقويماً.

وذلك أن هذه الكلمة كلمة استعانة، لا كلمة استرجاع.

وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعاً لا صبراً.

فالجنيد أنكر على الشبلي حاله في سبب قوله لها، إذ كانت حالاً ينافي الرضا، ولو قالها على الوجه المشروع لم ينكر عليه[١].

الصبر الجميل

قال أبو العباس:

الصبر الجميل: صبر بغير شكوى إلى المخلوق.

---

(١) الفتاوى ١٠/٦٨٦.

ولهذا قرئ على أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن طاووساً كان يكره أنين المريض، ويقول: إنه شكوى.

فما أنَّ أحمد حتى مات[1].

لا حول ولا قوة إلا بالله

قال أبو العباس:

لفظ «الحول» يتناول كل تحول من حال إلى حال.

و«القوة» هي القدرة على ذلك التحول.

فدلت هذه الكلمة العظيمة: على أنه ليس للعالم العلوي والسفلي حركة وتحول من حال إلى حال، ولا قدرة على ذلك إلا بالله[2].

البدعة

قال أبو العباس:

البدعة: ما خالف الكتاب والسنة، أو إجماع سلف الأمة، من الاعتقادات والعبادات[3].

والبدع نوعان:

---

(١) الفتاوى ١٠/ ١٨٣.

(٢) الفتاوى ٥/ ٥٧٤.

(٣) الفتاوى ١٨/ ٣٢٦.

- نوع في الأقوال والاعتقادات.

- ونوع في الأفعال والعبادات.

وهذا الثاني يتضمن الأول، كما أن الأول يدعو إلى الثاني.

فالمنتسبون إلى العلم والنظر وما يتبع ذلك، يخاف عليهم إذا لم يعتصموا بالكتاب والسنة من القسم الأول.

والمنتسبون إلى العبادة والنظر والإرادة وما يتبع ذلك يخاف عليهم إذا لم يعتصموا بالكتاب والسنة من القسم الثاني[1].

التوبة من قريب

قال أبو العباس:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد ﷺ عن ذلك فقالوا لي:

كل من عصى الله فهو جاهل.

وكل من تاب قبل الموت، فقد تاب من قريب.

(١) الفتاوى ٢٢/٣٠٦.

وأما من تاب عند معاينة الموت، فهذا كفرعون. . . الذي تاب عندما أدركه الغرق. . فقال الله ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس][1].

الذات والصفات

قال أبو العباس:

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث».

ومذهب السلف: أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

وهو سبحانه ـ مع ذلك ـ ليس كمثله شيء، لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله.

فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة، وله أفعال حقيقة، فكذلك له صفات حقيقة. وهو ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

---

(١) الفتاوى ١٨/ ١٩٠.

وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً، فإن الله منزه عنه حقيقة، فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه.

ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل:

فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذاتِ خلقه.

ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله. فيعطلوا أسماءه الحسنى، وصفاته العليا، ويحرفوا الكلم عن مواضعه[1].

الإسلام والإيمان دائرتان

قال أبو العباس:

قال أبو جعفر الباقر، وغيره من السلف:

الإسلام: دائرة كبيرة، والإيمان دائرة في وسطها. فإذا زنا العبد خرج من الإيمان إلى الإسلام.

كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)[2].

---

(١) الفتاوى ٥/٢٦ ـ ٢٧.

(٢) الفتاوى ٢٨/٤٣ ـ ٤٤.

بر الوالدين

كتب الشيخ أبو العباس رسالة إلى والدته[1] يقول فيها .

---

(١) وضعت هذه الرسالة تحت هذا العنوان، لأنها تمثل تطبيقاً عملياً لبعض ما يكون به بر الوالدين.

والرسالة ـ وإن كانت ليست من باب الوعظ ـ فإنها تحمل في طياتها الكثير من الآداب التي يستفيدها كل من أتيح له قراءتها.

ـ فهي تمثل الحنين إلى الأهل والأوطان. وهو معنى من معاني صلة الرحم التي أمر بها الإسلام.

ـ ومن مقدمة الرسالة نتعلم كيف أن الغاية هي مرضاة الله تعالى ولذا كان دعاؤه لوالدته أن يجعلها الله من خيار إمائه وخدمه.

ـ وفيها بيان كيف يكون اللطف في الاعتذار.

ـ وفيها بيان مراعاة سلم الأولويات، فهو لا يؤثر على القرب من أهله شيئاً من أمور الدنيا، بل ولا من أمور الدين إلا ما كان أرجح منه.

ـ وفيها الحث على استخارة الله تعالى في كل الأمور.

ـ وفيها تظهر عناية الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ بالكبار والصغار من أهله، وسائر الجيران والأهل والأصحاب. . فهو لا يهمل أحداً، بل لكل منهم مكانته في نفسه.

إنها قطعة من الأدب الرفيع، الذي يعلم الأدب الرفيع، فكانت محلاً لأن يستفاد منها، وتأخذ مكانها في هذه المواعظ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من أحمد بن تيمية إلى الوالدة السعيدة، أقر الله عينيها بنعمه، وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من خيار إمائه وخدمه.

فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين، وإمام المتقين، محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة، ومنن كريمة، وآلاء جسيمة، نشكر الله عليها، ونسأله المزيد من فضله، ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد، وأياديه جلَّت عن التعداد.

وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد، إنما هو لأمور ضرورية، متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا.

ولسنا ـ والله ـ مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه.

وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور، فإنكم ـ ولله الحمد ـ ما تختارون الساعة إلا ذلك، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهراً واحداً، بل كل يوم نستخير الله

لنا ولكم. وادعوا لنا بالخيرة، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين، ما فيه الخيرة، في خير وعافية.

ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة، والهداية والبركة، ما لم يكن يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر، مستخيرون الله سبحانه وتعالى.

فلا يظن الظان أنا نؤثر على قربكم شيئاً من أمور الدنيا قط، بل ولا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه. ولكن ثَمَّ أمور كبار، نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها. والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

والمطلوب: كثرة الدعاء بالخيرة، فإن الله يعلم، ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علام الغيوب.

وقد قال النبي ﷺ: «من سعادة ابن آدم استخارته الله، ورضاه بما يقسم الله له، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله. وسخطه بما يقسم الله له».

والتاجر يكون مسافراً فيخاف ضياع بعض ماله فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه، وما نحن فيه أمر يجل عن الوصف، ولا حول ولا قوة إلا بالله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته كثيراً كثيراً، وعلى سائر من

في البيت من الكبار والصغار، وسائر الجيران والأهل والأصحاب واحداً واحداً ـ والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً[1].

جمال الباطن

قال أبو العباس:

الحُسْنُ والجمال الذي يكون عن الأعمال الصالحة في القلب يسري إلى الوجه، والقبح والشين الذي يكون عن الأعمال الفاسدة في القلب يسري إلى الوجه.

ثم إن ذلك يقوى بقوة الأعمال الصالحة والأعمال الفاسدة.

وهذا يظهر ظهوراً بيناً في آخر العمر عند قرب الموت، فترى وجوه أهل السنة والطاعة، كلما كبروا ازداد حسنها وبهاؤها، حتى يكون أحدهم في كبره أحسن وأجمل منه في صغره.

ونجد وجوه أهل البدعة والمعصية كلما كبروا عظم قبحها وشينها[2].

---

(١) الفتاوى ٢٨/٤٨ ـ ٥٠.

(٢) الاستقامة ١/ ٣٦٤.

صلاح القلب

قال أبو العباس:

وأصل صلاح القلب: صلاح إرادته ونيته.

فإن لم يصلح ذلك، لم يصلح القلب. والقلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد[1].

الاستعاذة من النار

قال أبو العباس:

طلب الجنة والاستعاذة من النار، طريق أنبياء الله ورسله، وجميع أولياء الله السابقين المقربين، وأصحاب اليمين.

وفي السنن: أن النبي ﷺ سأل بعض أصحابه: (كيف تقول في دعائك)؟ قال: أقول: اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال النبي ﷺ: (حولها ندندن)[2][3].

---

(١) الاستقامة ٢/ ٣٤.

(٢) رواه أبو داود (٧٦٢). والدندنة: الكلام الخفي.

(٣) الاستقامة ٢/ ١١٠.

طريق الوصول

قال أبو العباس:

ولا يصل أحد من الخلق إلى الله وإلى رضوانه وجنته، وكرامته وولايته، إلا بمتابعته [ﷺ] باطناً وظاهراً، في الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، في أقوال القلب وعقائده، وأحوال القلب وحقائقه، وأقوال اللسان وأعمال الجوارح[1].

التقوى

قال أبو العباس:

والتقوى:

- أن يعمل الرجل بطاعة الله، على نور من الله، يرجو رحمة الله.
- وأن يترك معصية الله، على نور من الله، يخاف عذاب الله[2].

الرياء والعجب

قال أبو العباس:

---

(١) الرسالة السنية في اتباع الرسول ﷺ تأليف ابن تيمية. مقدمة الرسالة.

(٢) المرجع قبله.

كثيراً ما يقرن الناس بين الرياء والعجب.

- فالرياء: من باب الإشراك بالخلق.

- والعجب: من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المستكبر.

فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾.

والمعجب لا يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

فمن حقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ خرج عن الرياء، ومن حقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ خرج عن الإعجاب. وفي الحديث المعروف (ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه)[1].

مكانة الصلاة

قال أبو العباس:

ومن أحب الأعمال إلى الله وأعظم الفرائض عنده الصلوات الخمس في مواقيتها.

وهي أول ما يحاسب عليها العبد من عمله يوم القيامة.

وهي التي فرضها الله تعالى بنفسه ليلة المعراج، لم

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٢٧٧.

يجعل فيها بينه وبين محمد ﷺ واسطة.

وهي عمود الإسلام الذي لا يقوم إلا به.

وهي أهم أمر الدين كما كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يكتب إلى عماله، إن أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة[1].

الميزان الصحيح

قال أبو العباس:

إذا كان خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، فكل من كان إلى ذلك أقرب، وهو به أشبه، كان إلى الكمال أقرب وبه أحق.

ومن كان عن ذلك أبعد، وشَبَهُهُ أضعف، كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق.

والكامل هو من كان لله أطوع، وعلى ما يصيبه أصبر[2].

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٤٣٣.

(٢) الفتاوى ١١/ ٣٤.

فقه إنكار المنكر

قال أبو العباس:

مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه، وقلت له:

إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال، فدعهم[1].

موادة من حاد الله

قال أبو العباس:

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فأخبر أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله.

فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاة أعداء الله.

---

(١) إعلام الموقعين ٣/ ٥.

فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه، كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب.

فدلت هذه الآية على أنه لا يوجد مؤمن يواد الكفار[1].

الإسلام

قال أبو العباس:

الإسلام يجمع معنيين:

أحدهما: الاستسلام والانقياد، فلا يكون متكبراً.

والثاني: الإخلاص، من قوله تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩] فلا يكون مشركاً، وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين[2].

البدعة والمعصية

قال أبو العباس:

قال أئمة الإسلام، كسفيان الثوري وغيره: إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية. لأن البدعة لا يتاب منها، والمعصية يتاب منها.

ومعنى قولهم: إن البدعة لا يتاب منها: أن المبتدع

---

(١) الفتاوى ١٧/ ١٤٨.

(٢) الفتاوى ٢٨/ ١٧٤.

الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله، قد زُين له سوء عمله فرآه حسناً، فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً.

لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه، أو بأنه ترك حسناً مأموراً به ـ أمر إيجاب أو استحباب ـ ليتوب ويفعله، فما دام يرى فعله حسناً وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب[1].

بين الشكر والاستغفار

قال أبو العباس:

العبد ـ دائماً ـ بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى الاستغفار.

وكل من هذين، من الأمور اللازمة للعبد دائماً.

فإنه لا يزال يتقلب في نعم الله وآلائه، ولا يزال محتاجاً إلى التوبة والاستغفار[2].

حقيقة التوبة

قال أبو العباس:

والتوبة: رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه.

---

(١) الفتاوى ١٠/ ٩.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٨٨.

فالتوبة المشروعة: هي الرجوع إلى الله، وإلى فعل ما أُمر به، وترك ما نهي عنه.

وليست التوبة من فعل السيئات فقط، كما يظن كثير من الجهال، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم.

بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها.

فأكثر الخلق يتركون كثيراً مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها، وأقوال البدن وأعماله، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه، فيكونون: إما ضالين بعدم العلم النافع، وإما مغضوباً عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته[١].

خوف عدم قبول الأعمال

قال أبو العباس:

السعيد يخاف في أعماله أن لا يكون صادقاً في إخلاصه الدينَ لله، أو أن لا تكون موافقة لما أمر الله به على لسان رسوله.

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية، ص(٢٨٨).

ولهذا كان السلف يخافون النفاق على أنفسهم، فذكر البخاري عن أبي العالية قال:

«أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه»[١].

الورع

قال أبو العباس:

الورع المشروع: هو الورع عما قد تخاف عاقبته، وهو ما يعلم تحريمه، وما يشك في تحريمه.

ومن الورع: الاحتياط بفعل ما يشك في وجوبه.

وتمام الورع: أن يعلم الإنسان خير الخيرين، وشرَّ الشرين.

ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها[٢].

ليس حباً لله

قال أبو العباس:

من أحب إنساناً لكونه يعطيه، فما أحب إلا العطاء.

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية، ص(٢٥٧).

(٢) الفتاوى ١٠/٥١١ ـ ٥١٢.

ومن قال: إنه يحب من يعطيه لله، فهذا كذب ومحال وزور من القول.

وكذلك من أحب إنساناً لكونه ينصره، إنما أحب النصر لا الناصر.

وهذا كله من اتباع ما تهوى الأنفس.

فإنه لم يحب ـ في الحقيقة ـ إلا ما يصل إليه من جلب منفعة، أو دفع مضرة.

وليس هذا حباً لله، ولا لذات المحبوب.

وعلى هذا تجري عامة محبة الخلق بعضهم مع بعض.

وهذا لا يثابون عليه في الآخرة ولا ينفعهم.

وإنما ينفعهم في الآخرة: الحب في الله، ولله وحده[١].

شهود إنعام الله

قال أبو العباس:

أهل الهدى والرشاد، إذا فعلوا حسنة، شهدوا إنعام الله عليهم بها، وأنه هو الذي أنعم عليهم وجعلهم مسلمين، وجعلهم يقيمون الصلاة، وألهمهم التقوى، وأنه لا حول ولا قوة إلا به.

---

(١) الفتاوى ١٠/٦٠٩ ـ ٦١٠.

فزال عنهم بشهود القدر: العجب والمن والأذى.

وإذا فعلوا سيئة، استغفروا وتابوا إليه منها[1].

الحاجة إلى الشرع

قال أبو العباس:

الإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين:

- حركة يجلب بها ما ينفعه.
- وحركة يدفع بها ما يضره.

والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره.

والشرع نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمناً.

وليس المراد بالشرع التمييز بين الضار والنافع بالحسِّ، فإن ذلك يحصل للحيوانات العجم، فإن الحمار والجمل يميز بين الشعير والتراب.

بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده.. كنفع الإيمان والتوحيد والعدل.. وما كان ضد ذلك[2].

---

(١) الفتاوى ١١/ ٢٦٠.

(٢) الفتاوى ١٩/ ٩٩.

لم ينتفع بعلمه

قال أبو العباس:

ليس صلاح الإنسان في مجرد أن يعلم الحق، دون أن لا يحبه ويريده ويتبعه.

كما أنه ليس سعادته في أن يكون عالماً بالله، مقراً بما يستحقه، دون أن يكون محباً لله، عابداً لله، مطيعاً لله.

بل أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه.

ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار، لا مجرد التصديق.

والإقرار ضمن:

قول القلب الذي هو التصديق.

وعمل القلب الذي هو الانقياد[1].

بداية العمل وخاتمته

قال أبو العباس:

سنة الفجر تجري مجرى بداية العمل، والوتر خاتمته.

---

(١) الفتاوى ٧/٥٨٦، ٦٣٨.

ولذلك كان النبي ﷺ يصلي سنة الفجر والوتر بسورتي الإخلاص[1] وهما الجامعتان:

- لتوحيد العلم والعمل.
- وتوحيد المعرفة والإرادة.
- وتوحيد الاعتقاد والقصد[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) هما سورة الكافرون وسورة الإخلاص.

(٢) زاد المعاد ١/٣١٦.

المحتوى